أشد آية على العلماء

تفسير وفوائد

د. أحمد بن محمد البريدي

- عضو هيئة التدريس بكلية العلوم والآداب جامعة القصيم .
- حصل على درجة الماجستير من كلية الدعوة وأصول الدين جامعة أم القرى بتحقيق (الجزء الأخير من كتاب الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعلبي).
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين بالرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته (جهود الشيخ ابن عثيمين في التفسير وعلوم القرآن) .

المقدمة

الحمد لله منزل القرآن على سيد ولد عدنان، معجزة خالدة وحجة دائمة، جعله الله نبراساً للدعاة إلى يوم الدين يستمدون منه الهداية ويأخذون منه العبرة والآية ، يجدون فيه النور كلما أظلمت الشبهات، فكان من جملة آياته ما ورد فيه من القصص العظيمة والتي قصد بها العبرة والعظة، لا التسلية والسرد التاريخي، قال تعالى :

﴿ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦] ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣]

وقال تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١]

وقال تعالى: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠]

وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]

وإنّ مما قصه الله في كتابه قصة رجلٍ آتاه الله آياته فانسلخ منها فكانت عاقبته سيئة ،أرى أننا في أشد الحاجة للوقوف على تفسيرها وبيان ما اشتملت عليه من العظة والعبرة خاصة في زماننا الذي كثرت فيه الشبهات والشهوات حتى عدّ الإمام عطاء هذه الآية أشد آية على العلماء[1]،ومنه أخذت تسمية البحث فهو وصف صادق معبر لهذه الآية ، فحرصت على تفسيرها وبيان ما فيها من فوائد في بحث موجز فكانت هذه الصفحات وأسميته:

(١) تفسير البغوي (٣/ ٣٠٤)

أشد آية على العلماء
تفسيرٌ وفوائد

فجاء في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة
خطة البحث :
المقدمة
التمهيد وفيه أربعة مطالب :
المطلب الأول : القصة القرآنية تعريفها وأنواعها.
المطلب الثاني :القصة القرآنية حقيقة لا خيال.
المطلب الثالث : الآيات بين القصة والمثل .
المطلب الرابع : أخبار بني إسرائيل والموقف منها .

المبحث الأول : البيان التحليلي للآية ، وفيه ثلاثة مطالب :
المطلب الأول : غريب الألفاظ .
المطلب الثاني : الأسلوب البلاغي للآية .
المطلب الثالث : مناسبة الآية لما قبلها.

المبحث الثاني : تفسير الآية وبيان معناها الإجمالي وفيه خمسة مطالب :
المطلب الأول : اسم الذي أُوتي الآيات ،وزمانه ، والمكان الذي عاش فيه .
المطلب الثاني: المراد بالآيات التي أُوتيها، وكيفية انسلاخه منها ، وإتباعه الشيطان.
المطلب الثالث: معنى قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ .
المطلب الرابع: معنى قوله تعالى ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾
المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآية .

المبحث الثالث: الدروس المستفادة من الآية ، وفيه ثلاثة مطالب :
المطلب الأول : فضل العمل بالعلم ، والتحذير من ضده .
المطلب الثاني :ذم إتباع الهوى .
المطلب الثالث :الفوائد المستنبطة من القصة .
الخاتمة: وفيها أهم النتائج .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

التمهيد

المطلب الأول: القصة القرآنية تعريفها وأنواعها

القصّ تتبع الأثر يقال قصصت أثره أي تتبعته[1]، قال تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف:٦٤]

والقصص: الأخبار المتتبّعة قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ﴾ [آل عمران:٦٢]

وقصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة[2].

والقصص في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قصص الأنبياء وهي على قسمين:

القسم الأول: قسم ذكر أكثر من مرة وهو الأكثر كقصة موسى عليه السلام.

القسم الثاني: قسم ذكر مرة واحدة كقصة يوسف عليه السلام.

النوع الثاني: قصص تتعلق بحوادث غابرة وأشخاص لم تثبت نبوتهم، والأصل في هذا النوع عدم التكرار كقصة طالوت وجالوت، وأهل الكهف وذي القرنين وغيرهم.

النوع الثالث: قصص تتعلق بالحوادث التي وقعت زمن النبي ﷺ وهذه أيضا الأصل فيها عدم التكرار مع أنه قد وجد ما كرر منها، ومن أمثلة هذا النوع غزوات النبي ﷺ كبدر، وأحد، والأحزاب، وقصة الإسراء، وحادثة الإفك وغير ذلك[3].

وللقصص القرآني فوائد متعددة وقد جاء منها في القرآن الكريم ما يلي:

تثبيت قلب النبي ﷺ قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود:١٢٠]

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن ص٦٧١

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن ص٣١٦

(٣) المرجع السابق ص٣١٧

العظة والعبرة من أخبار الماضين قال تعالى: :﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف:١١١]

المطلب الثاني : القصة القرآنية حقيقة لا خيال

القصص القرآني تاريخ ثابت وأخبار سلفت وحوادث وقعت ، أما الخيال والخرافة والرمزية فلا وجود لها في وقائعها ولا في رموزها فهي تختلف عن القصة الأدبية المعتمدة على الخيال المطلق ، ولا يعني هذا عدم توفر الخصائص الفنية فيها من تنوع العرض والتصوير وما إلى ذلك .

وقد وصفت القصة القرآنية بأوصاف تقرر هذه الحقيقة، فوصفت بالحق بقوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ [آل عمران:٦٢]

ووصفت بالأحسنية في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف:٣]

بل إن قوله تعالى : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف:٧]

يقرر هذه الحقيقة، ولقد تعمق بعض من عقمت فكرته حول القصص القرآني حتى تغلّق ، وراح يلغ في حمى ليس له في سلف موفق ولا نظر محقق ، فأتى على القصة القرآنية ليعريها من الوقوع، وزعم أنها ضرب من السرد القصصي التخييلي وأقيمت دراسات وسدود لحجب واقعية القصة وسلب الأحداث التأريخية التي قالها الله ومن أصدق من الله قيلا[1] ..!!

(١) ممن شطح بذلك وتفيهق به صاحب رسالة الفن القصصي في القرآن وهي رسالة دكتوراه نوقشت عام ١٣٦٧هـ في إحدى الجامعات المصرية، زعم فيها أن القصة القرآنية لا تلتزم الصدق التاريخي. وممن حاد عن الجادة وأبعد النجعة طه حسين في كتابه : في الشعر الجاهلي متأثراً بالمستشرق البريطاني ديفيد صمويل مرجليوث والذي شكك فيه ببعض القصص القرآني كقصة بناء الكعبة بل في وجود أنبياء الله كإبراهيم وإسماعيل ،وقد تولى الرد عليه ونسف نظريته مصطفى صادق الرافعي في كتابه : تحت راية القرآن .

ولقد انبرى لتلك الدعوى خلص من قبلي وعرّوها، فالمسلم الحق هو الذي يؤمن بأن القرآن كلام الله وأنه منزه عن ذلك التصوير الفني الذي لا يُعني فيه بالواقع التاريخي، إذ القصص القرآنية حقائق تاريخية صيغت على أعلى درجات البلاغة والبيان في صور بديعة من الألفاظ والأساليب الرائعة.[١]

المطلب الثالث : الآيات بين القصة والمثل

لقد اشتمل القرآن على القصص والأمثال، فإخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة ، والحوادث الواقعة هو من قبيل القصص القرآني قال الله تعالى: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٦

وحينما يُبرز القرآن المعاني في صورة حيَّة تستقر بالأذهان بتشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس، أو أحد المحسوسين بالآخر، ويقيس النظير بالنظير، فهو من قبيل الأمثال القرآنية .

وعند النظر في هذه الآيات نجد أن المفسرين قد اختلفوا فيها على قولين :

القول الأول : إنها من قبيل القصص القرآني ، وعليه جمهور المفسرين ، حيث عيّنوا المراد على أنها واقعة معروفة[٢]، وإن كانوا قد اختلفوا في تعيينه على ما سيأتي بيانه ، بل إن خاتمة الآية توحي بذلك: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٦

القول الثاني: إنها من قبيل المثل القرآني ، وهو الذي يظهر من قول قتادة رحمه الله ، حيث قال : إنه مثل لمن عرض عليه الهدى ، فأبى أن يقبله ، وتركه[٣] .

قلت: ولعله فهمه من قوله تعالى : ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ ﴾ الأعراف: ١٧٦

وقد تعقبه الألوسي بقوله "وفيه بعد ومخالفة للروايات المشهورة"[٤]

(١) للاستزادة في ردّ هذه الفرية وأمثالها راجع : محاضرات في علوم القرآن ل د. فضل حسن عباس ص٣١٤،وعلوم القرآن ل د. عدنان زرزور ص٣٦٢، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٣١٩.

(٢) انظر : جامع البيان (٩/ ١١٩).

(٣) المرجع السابق (٩/ ١٢٩).

(٤) روح المعاني (٩/ ١١٤).

والذي يظهر أن قتادة أراد – والله أعلم – أنه مثلٌ عامٌ يصلح لكل من أعرض عن الهدى وهذا حق فلا وجه للاعتراض ، ويدل على هذا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه قال : في تعيينه يشك فيه ، يقول بعضهم : بلعم ، ويقول بعضهم : أمية بن أبي الصلت [1].مما يدل على أنه لم يخرجها من دائرة القصة ، ولهذا قال السعدي : "وهذا الذي آتاه اللهّ آياته، يحتمل أن المراد به شخص معين، قد كان منه ما ذكره اللهّ، فقص اللهّ قصته تنبيها للعباد، ويحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه اللهّ آياته فانسلخ منها"[2].

والخلاصة أن هذه الآية قصة قرآنية اشتملت على مثل قرآني ، فكما نجدها مذكورة في كتب القصص القرآنية نجدها أيضا مذكورة في كتب الأمثال القرآنية .

قال ابن جرير تعليقاً على قوله تعالى: ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ " هذا المثل الذي ضربتُه لهذا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، مثلُ القوم الذين كذبوا بحُججنا وأعلامنا وأدلَّتنا، فسلكوا في ذلك سبيل هذا المنسلِخ من آياتنا الذي آتيناها إياه، في تركه العمل بما آتيناه من ذلك.

وأما قوله: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾ فإنه يقول لنبيه محمد ﷺ: فاقصص يا محمد هذا القصص، الذي اقتصصته عليك من نبأ الذي آتيناه آياتنا، وأخبارَ الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصَصْت عليك نبأهم ونبأ أشباههم ... " الخ [3].

المطلب الرابع : أخبار بني إسرائيل والموقف منها

أخبار بني إسرائيل هي تلك الروايات المنسوبة لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) من غير طريق القرآن والسنة الثابتة عن النبي ﷺ ، وإنما سميت بني

(١) جامع البيان (٩ / ١١٤)

(٢) تفسير السعدي(٣/ ١١٧)

(٦) جامع البيان (٩ / ١٣٠)

إسرائيل والتي ترمز لليهود من باب التغليب حيث إنهم هم الذين عرفوا بالعلم بخلاف النصارى ، والروايات عنهم أكثر .

ويرجع أصل هذه المسألة إلى الحديث الصحيح عن النبي ﷺ حيث قال:"بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج "[(١)]

وقل أن يوجد كتاب من كتب التفسير يخلو من هذه الإسرائيليات على تفاوت بينهم في القلة والكثرة والقبول والرد ، بل غدت كثرة الإسرائيليات في تفسيرٍ ما من العيوب المعدودة فيه وهذا يعود إلى ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله :"وغالب ذلك –أي روايات أهل الكتاب – مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني [(٢)] .

وقال أيضا : " وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله نصب على الحق فيه دليلا، فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف، وفي البعض الذي ضرب به موسى من البقرة، وفى مقدار سفينة نوح، وما كان خشبها، وفى اسم الغلام الذي قتله الخضر، ونحو ذلك فهذه الأمور طريق العلم بها النقل فما كان من هذا منقولا نقلا صحيحا عن النبي ﷺ كاسم صاحب موسى أنه الخضر فهذا معلوم، و مالم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب؛ كالمنقول عن كعب، ووهب، ومحمد بن اسحق، وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة " [(٣)] .

وقال تلميذه ابن كثير : وليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحاً .[(٤)]

وقد ورد عن النبي ﷺ قوله :" لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم "[(٥)] .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب : بدء الخلق باب : ما ذكر عن بني إسرائيل (٤/ ١٤٥) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٢) مقدمة التفسير لابن تيمية ص١٠٠

(٣) مقدمة التفسير ص٥٦ .

(٤) تفسير ابن كثير (٥ / ٣٢٩).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب : الاعتصام باب : قول النبي صلى الله عليه وسلم [تسألوا أهل الكتاب عن شيء] (٨/ ١٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقد قسم العلماء المنقول عن أهل الكتاب من جهة قبوله أو رده، والتحديث به إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : منقول جاء في القرآن أو في السنة ما يصدقه ، فهذا حق مقبول ، ويجوز التحديث به ، وعليه يُحمل حديث النبي ﷺ : " وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ".

القسم الثاني : منقول جاء في القرآن أو في السنة ما يكذبه ، فهو باطل ومردود ، وعليه تُحمل أحاديث النهي عن الأخذ عن بني إسرائيل.

القسم الثالث: منقول مسكوت عنه ؛ إذ لم يأت ما يصدقه أو يكذبه ، فهذا لا يوصف بكونه حقاً أو باطلاً ، وتجوز حكايته ، وغالبه مما لا فائدة فيه ، وعليه يُحمل حديث النبي ﷺ :" لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم " ؛ لأنه ربما كان كلامهم حقًّا فلو كذبناه نكون قد كذبنا بالحق ، أو يكون باطلاً ولو صدقناه نكون قد صدّقنا بالباطل .[1]

المبحث الأول : البيان التحليلي للآية

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : غريب الألفاظ الواردة في الآية

انسلخ : السلخ : نزع جلد الحيوان ، يقال سلخته فانسلخ .[2]

والمعنى : أي انسلخ من هذه الآيات التي أوتيها كما تنسلخ الشاة عن جلدها فلم يبق له بها اتصال .

فأتبعه : أي لحقه وأدركه[3]، والمعنى : أي لحقه وأدركه وصار قريناً له.

الغاوين : جمع غاوي والغواية جهل عن اعتقاد فاسد[4] والمعنى :كان من المتمكنين في الغواية وهم الكفار .

(١) انظر مقدمة التفسير لابن تيمية ص ١٠٠

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (ص ٤١٩)

(٣) المرجع السابق (١٦٣)

(٤) المرجع السابق (ص ٦٢٠)

أخلد : أي سكن وركن وإخلاد الشيء : جعله مبقى والحكم عليه يكون مبقى والمعنى: ركن إلى الأرض ظاناً أنه يخلد فيها[١] ومال إلى الدنيا ورغب فيها وآثرها على الآخرة .

يلهث : اللهاث : هو إدلاع اللسان[٢] قال ابن قتيبة: كل شي يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش أو علةٍ خلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة، وحال الصحة والمرض ، وحال الري والعطش [٣] .

المطلب الثاني: الأسلوب البلاغي للآية

القرآن الكريم له من البلاغة أعلاها، ومن البيان أتمه، وقد لفت انتباهي في هذه الآية تعبيران أولهما : التعبير بالانسلاخ من الآيات وإتباع الشيطان لمن هذه حاله .

وثانيهما: التشبيه البليغ والتمثيل البديع بالكلب دون سائر الحيوانات في مآله.

فما بلاغة التعبير فيهما.

أولاً: بلاغة التعبير بالانسلاخ واتباعه الشيطان

أخبر الله تعالى أنه بعد أن أعطاه آياته انسلخ منها فما معنى انسلاخه منها وما بلاغة التعبير بهذه اللفظة :

قال ابن جرير الطبري : يعني خرج من الآيات التي كان الله آتاه إياها فتبرأ منها [٤] .

وقال القرطبي: الانسلاخ : الخروج يقال انسلخت الحية من جلدها أي خرجت منه وقيل : هذا من المقلوب أي انسلخت الآيات منه [٥] .

وقال أبو السعود : التعبير عن الخروج منها بالانسلاخ للإيذان بكمال مباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال [٦].

(١) المرجع السابق (ص٢٩٢)
(٢) انظر مفردات ألفاظ القرآن (ص٧٤٨)
(٣) تأويل مشكل القرآن (ص٣٦٩).
(٤) جامع البيان (٩ / ١٢٣)
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٧ / ٣٢١)
(٦) تفسير أبي السعود (٢ / ٢١١)

وقال الألوسي: أي من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة ، والمراد أنه خرج منها بالكلية بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره، وحقيقة السلخ كشط الجلد وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه ، ويقال لكل شيء فارق شيئاً على أتم وجه انسلخ منه ، وفي التعبير به ما لا يخفى من المبالغة [١] .

إذن هذا التعبير القرآني يوحي بانفصاله التام الكلي عن الآيات حساً ومعنى بعد أن كان متمكناً منها شديد الالتصاق بها، فكان فريسة سهلة للشيطان ولذا قال الله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي لحقه وأدركه وأتى العطف بالفاء للإيذان بأنه ما كان الشيطان ليدركه ويلحق به لو تمسك بآيات الله إذ إن قدرة الشيطان على إغوائه كانت بسبب إعراضه عن آيات الله متراخياً لا سابقاً له وفيه من التحذير ما لا يخفى، وقد دار كلام المفسرين حول هذا المعنى :

فقال ابن كثير: أي استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه [٢] .

وقال الألوسي : أي لحقه وأدركه كما قال الراغب بعد أن لم يكن مدركاً له لسبقه بالإيمان والطاعة ، وقال الجوهري يقال : أتبعت القوم إذا سبقوك فلحقتهم وكأن المعنى جعلتهم تابعين لي بعد ما كنت تابعاً لهم ، وفيه حينئذٍ مبالغة في اللحوق إذ جعل كأنه إمام للشيطان والشيطان يتبعه وهو من الذم بمكان ، ونظيره في ذلك قوله :

وكان فتى من جند إبليس فارتقى به الحال حتى صار إبليس من جنده

وصرح بعضهم بأن معناه استتبعه أي جعله تابعاً له، وهو على ما قيل متعد لمفعولين حذف ثانيهما أي أتبعه خطواته [٣] .

وقال السعدي : أتبعه الشيطان أي تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين وصار إلى أسفل سافلين فأزه إلى المعاصي أزاً [٤] .

وقال الشوكاني: أي لحقه فأدركه فصار قريناً له أو فأتبعه خطواته [٥] .

(١) روح المعاني (٩/ ١١١)
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٢)
(٣) روح المعاني (٩/ ١١١)
(٤) تفسير السعدي (٣/ ١١٦)
(٥) فتح القدير (٣/ ٢٦٥)

وليعلم أن عاقبة هذا الإتباع الغواية كما قال تعالى ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ الأعراف: ١٧٥

والغواية هي الانحراف عن علم وبصيرة والمعنى كان من المتمكنين في الغواية العاملين بخلاف علمهم الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه .

وأتى العطف أيضاً بالفاء لبيان أن الغواية نتيجة حتمية لإتباع الشيطان وأن إتباع الشيطان من أعظم أسبابها والله أعلم .

ثانياً : سِرُّ التمثيل بالكلب دون سائر الحيوانات وتصوير ذلك التمثيل

قال الله تعالى : ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ﴾

لقد انقسم المفسرون في هذه الآية إلى قسمين :

القسم الأول : جعل اللهاث في صورته الحسية فهو يلهث حقيقة كما يلهث الكلب، قال ابن عطية : قال السدي وغيره : إن هذا الرجل عوقب في الدنيا بأنه كان يلهث كما يلهث الكلب ، فشبه به صورة وهيئة [1].

فالهيئة هيئة الكلب والقبح قبحه ومن أشد الصور المحسوسة المقززة للنفوس في الكلب هي صورته فاغراً فاه ، دالعاً لسانه، فأي كرامة لآدمي يتحول بشكله الظاهري إلى ذلك التصوير القرآني العميق ، الذي ارتقى بكرامة الإنسان ليوصف بهذا الوصف هنا في آية الأعراف ..!!

القسم الثاني : جعل اللهاث في صورته المعنوية إذ هو مثل لا حقيقة، وعلى هذا الجمهور وهو الأولى قال ابن جرير : "وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويلُ من قال: إنما هو مثلٌ لتركه العمل بآيات الله التي آتاها إياه، وأنّ معناه: سواء وعظ أو لم يوعظ، في أنه لا يترك ما هو عليه من خلافه أمر ربّه، كما سواءٌ حمل على الكلب وطُرِد، أو ترك فلم يطرد، في أنه لا يدَع اللهث في كلتا حالتيه.

(١) المحرر الوجيز (٧/ ٢٠٧) ، وانظر جامع البيان (٩/ ١٢٩)

وإنما قلنا: ذلك أولى القولين بالصواب، لدلالة قوله تعالى: ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ ﴾ فجعل ذلك مثلَ المكذِّبين بآياته، وقد علمنا أن اللُّهَاث ليس في خِلقة كل مكذّب كُتب عليه ترك الإنابة من تكذيبه بآيات الله، وأن ذلك إنما هو مثل ضربه الله لهم، فكان معلوما بذلك أنه للذي وصف الله صفته في هذه الآية، كما هو لسائر المكذبين بآيات الله مثلٌ [1].

وتمثيل من هذا حاله بالكلب تمثيل بديع مطابق لحال الكلب قال ابن قتيبة : كل شي يلهث[2] فإنما يلهث من إعياء أو عطش أو علةٍ خلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة، وحال الصحة والمرض ، وحال الري والعطش ، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته فقال : إن وعظته فهو ضال ، وإن لم تعظه فهو ضال كالكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث أو تركته على حالته لهث [3].

وقال ابن عطية: "قال الجمهور إنما شبه به في أنه كان ضالاً قبل أن يؤتى الآيات، ثم أوتيها فكان أيضاً ضالاً لم تنفعه الآيات ، فهو كالكلب في أنه لا يفارق اللهث في حال حمل المشقة عليه وتركه دون حمل عليه ، وتحرير المعنى: فالشيء الذي تتصوره النفوس من حاله هو كالذي تتصور من حال الكلب[4]

وقال ابن القيم : "فشبه سبحانه من آتاه كتابه وعلمه العلم الذي منعه غيره فترك العمل به واتبع هواه وآثر سخط الله على رضاه ودنياه على آخرته والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدرا وأخبثها نفسا وهمته لا تتعدى بطنه ... إلى أن قال : وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في لهثه سر بديع وهو أن الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٢٩)

(٢) قال ابن عطية : اللهث تنفس بسرعة وتحرك أعضاء الفم معه وامتداد اللسان . المحرر الوجيز (٧/ ٢٠٧)

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٣٦٩

(٤) المحرر الوجيز (٢/ ٣٠٧)

لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى" [(١)].

وقال محمد الطاهر بن عاشور : "فهذا تشبيهُ تمثيل مُركب منتزعةٌ فيه الحالة المشبهة والحالةُ المشبه بها من متعدد ، ولما ذُكر ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ الأعراف: ١٧٦ في شق الحالة المشبه بها، تعين أن يكون لها مقابل في الحالة المشبهة ، وتتقابل أجزاءُ هذا التمثيل بأن يشبّه الضال بالكلب ، ويشبه شقاؤُه واضطرابُ أمره في مدة البحث عن الدين بلهث الكلب في حالة تركه في دعة ، تشبيهَ المعقول بالمحسوس ، ويشبّه شقاؤه في إعراضه عن الدين الحق عند مجيئه بلهث الكلب في حالة طرده وضربه تشبيه المعقول بالمحسوس" [(٢)].

قال الألوسي : إيثار الجملة الاسمية على الفعلية بأن يقال : فصار مثله كمثل الكلب للإيذان بدوام اتصافه بتلك الحالة الخسيسة وكمال استمراره عليها [(٣)].

وللخازن كلام نفيس في تفسيره حيث يقول : هذا مثل ضربه الله عز وجل لمن آتاه آياته وحكمته فتركها وعدل عنها واتبع هواه وترك آخرته وآثر دنياه بأخس الحيوانات ، وهو الكلب في أخس أحواله وهو اللهث لأن الكلب في حال لهثه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضرها ، كذلك العالم الذي يتبع هواه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضرها في الآخرة ، لأن التمثيل به على أن يلهث على كل حال إن حملته عليه أو تركته كان لاهثاً ، وذلك عادة منه وطبيعة وهي مواظبته على اللهث دائماً فكذلك من أتاه الله العلم والدين وأغناه عن التعرض لحطام الدنيا الخسيسة ، ثم إنه مال إليها وطلبها كانت حالته كحال الكلب اللاهث وقيل : إن العالم إذا توصل بعلمه إلى طلب الدنيا فإنه يظهر علومه عند أهلها ويدلع لسانه في تقرير تلك العلوم وبيانها[(٤)] وذلك لأجل ما يحصل عنده من

(١) بدائع التفسير (٢/ ٣٠٧)

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٧٨)

(٣) روح المعاني (٩ / ١١٤)

(٤) وكم سمع الناس في هذا الزمان من فتاوى لبعض المنتسبين للعلم يطول منها العجب بل إنك لتقطع أن قائلها هو أول من لم يقتنع بها ولكنه الهوى والله المستعان .

حرارة الحرص الشديد وشدة العطش إلى الفوز بمطلوبه من الدينا فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الذي أدلع لسانه من اللهث في غير حاجة ولا ضرورة[1] .

وقال د. زغلول النجار : تشبيه من آتاه الله شيئا من العلم فلم ينتفع به، وانسلخ عنه ليتبع هواه والشيطان، ويلهث وراء أعراض الدنيا الفانية لهاثا يشغله عن حقيقة رسالته في هذه الحياة فلا يستمع لنصح أبدا، ولا لموعظة صادقة أبدا حتي يفاجأ بالموت ولم يحقق من وجوده شيئا، وتشبيه ذلك بلهاث الكلب إن تحمل عليه بالطرد والزجر يلهث، وإن تتركه يلهث والقصد في التشبيه التأكيد علي الوضاعة والخسة، ولكن يبقي التشبيه حاويا لحقيقة علمية لم يصل إليها علم الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين ومؤداها أن الكلب هو الحيوان الوحيد الذي يلهث بطريقة تكاد تكون مستمرة، وذلك في محاولة منه لتبريد جسده الذي لايتوفر له شيء يذكر من الغدد العرقية إلا في باطن أقدامه فقط، فيضطر إلي ذلك اللهاث في حالات الحر أو العطش الشديد أو المرض العضوي أو النفسي، أو الإجهاد والإرهاق أو الفزع والاستثارة.

أما ما معنى (اللهث) ولماذا يلهث الكلب ؟ : يقال:(لهث) الكلب (يلهث) (لهاثا) بضم اللام وفتحها إذا أخرج لسانه من الحر والعطش، أو من التعب والإعياء والإجهاد والمرض، و(اللهثان) بفتح الهاء: العطش، وبسكونها: العطشان، والأنثي:(لهثي).

ويعرف(لهث) الكلب و(لهاثه) بأنه الأنفاس السريعة الضحلة التي يأخذها الكلب عن طريق فمه المفتوح، ولسانه المتدلي إلي الخارج، وذلك من أجل تزويد جسمه بقدر كاف من الأكسجين، وضبط كل من كمية الماء ودرجة الحرارة في الجسم، وتهويته في حالات الحر الشديد، والسبب في ذلك أن جسم الكلب لا يحمل غددا عرقية إلا في باطن أقدامه فقط، وهذه لا تفرز من العرق ما يكفي لتنظيم درجة حرارة جسمه، ولذلك فإن الكلب يستعين بعملية(اللهاث) لتعويض غيبة الغدد العرقية في غالبية جسمه، ولوجود الشعر الكثيف الذي

(١) تفسير الخازن (٢/ ٢٧٢)

يغطي أغلب الجسم فيرفع من درجة حرارته خاصة في غيبة الغدد العرقية التي تقوم بتنظيم درجة حرارة أجساد أغلب الكائنات الحية الأرضية.

واللهث هو زيادة في عدد مرات التنفس السريع والقصير المدي زيادة ملحوظة عن معدلات التنفس العادي مع تعريض مساحة أكبر من داخل الجسم كاللسان والفم ومن الجهاز التنفسي بدءا من المنخار إلي فراغات كل من الأنف والفم إلي كل من البلعوم والحنجرة، والمريء، والقصبات الهوائية أو الرغامي(**Trachea**) لتيار مستمر من الهواء يزيد من كم الأكسجين الداخل إلي الجهاز التنفسي وفي نفس الوقت يقوم بتبخير جزء من الماء الموجود في الأنسجة التي يمر بها فيؤدي إلي تبريد الجسم وخفض درجة حرارته، ويساعد علي ذلك ما يقوم به الكلب أحيانا من لحس الأطراف، ولحس بقية مايطول لسانه من جسمه وتبليله بلعابه حتي يتبخر ذلك ويساعد علي خفض درجة حرارة جسمه.

ومن بديع صنع الخالق - سبحانه وتعالي- أن لهاث الكلب يؤثر فقط علي مقدمات الجهاز التنفسي ولا يقتضي الانتفاخ الكامل للرئتين وأسناخهما (**FullAlveolarInflation**)، لإتمام عملية التبادل الكامل بين أكسجين الهواء الداخل وثاني أكسيد الكربون بالرئتين، وذلك لأن أغلب الهواء الداخل بعملية اللهث لا تتجاوز حركته ما يسمي باسم الفراغ الميت من الجهاز التنفسي الذي يمتد من كل من الأنف والفم وفراغاتهما إلي كل من البلعوم، والحنجرة، والمريء، والقصبة الهوائية بتفرعاتها، ولكنه لا يكاد يصل إلي الرئتين، حتي لا يؤدي ذلك إلي زيادة فقد ثاني أكسيد الكربون من الرئتين مما قد يتسبب في مرض يعرف باسم مرض القلاء(**Alkalosis**).

ومن أحكام الخلق في بناء جسم الكلب أن عملية اللهاث تتم بأقل قدر ممكن من حركة العضلات، وهي أكثر أجزاء جسم الكلب نموا - ومن أبرزها عضلة اللسان - ، وبحركتها ترتفع درجة حرارة الجسم، ولذلك جعل الله - تعالي - الجهاز التنفسي للكلب جهازا شديد المرونة ينتفخ بأقل جهد ممكن أثناء عملية الشهيق، ويعود إلي حجمه الطبيعي دون أي تدخل عضلي أثناء عملية الزفير وذلك في مصاحبة عملية اللهثان.

فعندما يبدأ الكلب في هذه العملية تنتقل سرعة تنفسه فجأة من ٣٠ ـ ٤٠ نفسا بالدقيقة إلي عشرة أضعاف ذلك (أي إلي ٣٠٠ ـ ٤٠٠ نفس بالدقيقة).

فإذا عطش الكلب أو ارتفعت درجة حرارة جسمه أو حدث الأمران معا فإنه يبدأ في اللهث بمعدلات سريعة، ثم يعود لتنفسه العادي، ثم يلهث سريعا، ثم يعود إلي التنفس البطيء حتي يحقق تبريد جسمه وضبط درجة حرارته، ويعين علي ذلك قدر الهواء الداخل إلي مقدمات الجهاز التنفسي وما يحمل معه من بخار الماء الذي يتصاعد من الأنسجة التي يمر عليها وهو خارج إلي الجو مع عملية الزفير خاصة أن الممرات الأنفية والفمية للكلب مصممة بنظام يسمح بمرور كمية كبيرة من الهواء مع كل نفس، كما يعين عليه المرونة الزائدة للجهاز التنفسي الذي يمتد مع الشهيق باستهلاك جزء يسير جدا من طاقة العضلات ويرتد بذاته مع عملية الزفير دون أدني تدخل عضلي.. وقد قدر أنه لو لم يكن للجهاز التنفسي للكلب هذا القدر من المرونة العالية لكانت الحرارة الناتجة من عملية اللهاث أكبر بكثير من الحرارة المفقودة بتبخير جزء من ماء الأنسجة المبطنة لمقدمات جهازه التنفسي بواسطة تيار الهواء المار بها أثناء عملية الزفير، وذلك لأن الطاقة اللازمة لتحريك عضلات الجهاز التنفسي عند غير الكلب من الثدييات آكلة اللحم (اللاحمة) هي طاقة كبيرة، والحرارة الناتجة عنها هي حرارة ذات قيم مرتفعة.

والكلب يلهث عادة عند ارتفاع درجة حرارة جسده بسبب ارتفاع درجة حرارة البيئة التي يحيا فيها، أو بسبب العطش، أو بسببهما معا، أو عند الإجهاد الشديد، أو الإعياء والمرض العضوي أو النفسي، أو عند الاستثارة والمفاجأة، أو عند الفرح والرضا بصفة عامة.[1]

وبعد : فإن ما تقدم جملة من أقوال المفسرين والمهتمين بالإعجاز العلمي في سر التمثيل بالكلب وتصوير ذلك، وكلها تدور حول إيثار الفاني على الباقي والدنيا على الأخرى والسفالة على الرفعة واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو

---

(١) انظر : الموقع الرسمي د. زغلول النجار على الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت) www.elnaggarzr.com

خير ، وأن من انسلخ عن آيات الله لا تتحقق له الراحة والسعة بل يبقى في ضيق وشدة وحرارة دائمة مهما تحققت له وسائل الظاهرة ، ومهما كان في رغد ظاهر من العيش، وصدق الباري ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٤] .

المطلب الثالث: مناسبة الآية لما قبلها

التناسب بين آيات القرآن الكريم بالرغم من تباعد النزول بين آياته يبين لنا أنه من لدن حكيم عليم، وعلى المفسر التأمل والبحث عن هذه المناسبة لكن بشرط عدم التكلف والتمحل، وهذا التناسب يكون أحياناً ظاهراً ويكون أحياناً خفياً.

وعند تأمل هذه القصة نجدها أتت بعد قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢ – ١٧٥] .

لقد حاول بعض المفسرين تلمس هذه المناسبة وإيضاح وجه الترابط بينها:

فقال البقاعي: " ولما ذكر لهم ما أخذ عليهم في كتابهم من الميثاق الخاص الذي انسلخوا منه ، وأتبعه الميثاق العام الذي قطع به الأعذار ، أتبعهما بيان ما يعرفونه من حال من انسلخ من الآيات ، فأسقطه الله من ديوان السعداء ، فأمره ﷺ أن يتلو عليهم ، لأنه – مع الوفاء بتبكيتهم – من أدلة نبوته الموجبة عليهم اتباعه ، فذكره ما وقع له في نبذ العهد والانسلاخ من الميثاق بعد أن كان قد أعطى الآيات وأفرغ عليه من الروح فقال : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي اقرأ شيئاً بعد شيء "(١) .

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ١٥٦)

وقال محمد الطاهر بن عاشور : " ومناسبتُها للتي قبلها إشارة للعبرة من حال أحد الذين أخذ الله عليهم العهد بالتوحيد والامتثال لأمر الله ، وأمده الله بعلم يعينه على الوفاء بما عاهد الله عليه في الفطرة ، ثم لم ينفعه ذلك كله حين لم يقدر الله له الهدى المستمر "(١).

وقال سيد قطب : " وكمثل للانحراف عن سواء الفطرة ، ونقض لعهد الله المأخوذ عليها ، ونكوص عن آيات الله بعد رؤيتها والعلم بها . . ذلك الذي آتاه الله آياته ، فكانت في متناول نظره وفكره؛ ولكنه انسلخ منها ، وتعرى عنها ولصق بالأرض ، واتبع الهوى؛ فلم يستمسك بالميثاق الأول ، ولا بالآيات الهادية؛ فاستولى عليه الشيطان؛ وأمسى مطروداً من حمى الله ، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار "(٢).

والخلاصة : أن هذا الذي أوتي آيات الله فانسلخ منها، هو مثال لمن نقض العهد الذي أخذه الله على بني آدم المذكور في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾ .

المبحث الثاني : تفسير الآية وبيان معناها الإجمالي

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : اسم الذي أُوتي الآيات ،وزمانه ، والمكان الذي عاش فيه

لقد حكى الله تعالى قصة رجل آتاه آياته فانسلخ منها مبهماً إذ لم يذكر في الآية اسمه ولا زمانه ولا المكان الذي عاش فيه ، ذلك أن القرآن هدفه من ذكر القصص ما تحمله بين طياتها من العبرة دون تفاصيلها ودقائقها التي لا تؤثر على موطن العبرة منها، وهذه طريقة القرآن وعادته، بيد أن الناظر في كتب التفسير يجد تفصيلات كثيرة بينها اختلاف وتناقض(٣) في تعيين اسمه وزمانه ومكانه،

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٧٣)

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٣٩٦).

(٣) من أراد الرجوع إليها فلينظر : جامع البيان (٩ / ١٢٤ وما بعدها) تفسير البغوي (٣ / ٣٠١) ، زاد المسير (٣/ ٢١٩).

مما لم يرد به خبر عن معصوم ، وإنما هي أخبار بني إسرائيل، التي أمرنا بعدم تصديقها أو تكذيبها مادام لم يرد عندنا نص في التكذيب أو التصديق وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني [(١)].

وسأذكر خلاصة هذه الأقوال في تعيين اسمه ويتبع ذلك معرفة مكانه وزمانه ومن ثم سأذكر الموقف الصحيح من هذه الاختلافات :

القول الأول : إنه رجل من بني إسرائيل يقال له :بلعام ويقال :بلعم بن باعوراء ، قاله: ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي ومالك بن دينار .

أما مكانه فقال ابن عباس: إنه من أهل اليمن وروى عنه أنه من مدينة الجبارين [(٢)]، أي أنه في أرض الشام .

القول الثاني : إنه رجل على عهد النبي ﷺ واختلفوا في اسمه فقيل : هو أمية بن الصلت قاله عبد الله بن عمرو بن العاص، وسعيد بن المسيب، وأبو روق وزيد بن أسلم .

وقيل: إنه أبو عامر الراهب روي عن ابن عباس ، وسعيد بن المسيب [(٣)] .

وما ذكر خلاصة ما قيل في تعيينه ولي مع هذه الأقوال الوقفات التالية :

الوقفة الأولى : أن أكثر المفسرين يقولون : إنه رجل من المتقدمين لا أنه على عهد النبي ﷺ ومن قال: إنه أمية بن الصلت أو أبي عامر الراهب فمرادهم – والله أعلم – أنه داخل في حكم الآية، لا أنه هو المراد بالآية بدليل أن من قال بهذا القول أكثرهم قائلون بالقول الأول ، ولذا قال ابن كثير معلقاً على قول عبد الله بن عمرو بن العاص : وكأنه إنما أراد أن أمية بن الصلت يشبهه فإنه كان قد اتصل به علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ، ولكنه لم ينتفع بعلمه فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته وظهرت لكل من له بصيرة ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم .[(٤)]

---

(١) انظر مقدمة التفسير لابن تيمية (ص ١٠٠)

(٢) انظر زاد المسير (٣/ ٢١٩)

(٣) المرجع السابق (٣/ ٢٢٠)

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٠)

ولذا فذكر السلف لأمية بن الصلت أو أبو عامر إنما هو من باب التمثيل وأنه داخل في حكم الآية على عادتهم في التفسير، قال ابن تيمية بعد ذكره للنوع الثاني من اختلاف التنوع عند السلف وهو التمثيل : " وقد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم هذه الآية نزلت في كذا لا سيما إن كان المذكور شخصا ؛ كأسباب النزول المذكورة في التفسير ... إلى أن قال : وقولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة أنه سبب النزول ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما تقول عنى بهذه الآية كذا "[1].

وكما روى عن السلف التعيين بالاسم وأريد أنه داخل في حكم الآية روى عن بعضهم التعيين بالوصف فروي عن الحسن أن المقصود به : المنافق وروي عن عكرمة أن المقصود به : كل من انسلخ من الحق بعد أن أعطيه من اليهود والنصارى والحنفاء[2] ومثله من قال : إنها نزلت في اليهود والنصارى أو نزلت في قريش.

وقد اعترض الألوسي على هذا بقوله: " ويُبْعد ذلك إفراد الموصول – أي قال الذي – ولم يقل الذين"[3].

قلت: ويمكن أن يجاب عن هذا الاعتراض بأن الظاهر من مراد القائلين بذلك؛ أنهم داخلون في حكم الآية ـ كما قدمت ـ لا أنها سبب نزول الآيات.

الوقفة الثانية : من خلال سياق الآيات والمروي عن السلف يظهر أن الآيات نازلة في رجل متقدم وأنه من بني إسرائيل ولذا قال الألوسي : وكونه إسرائيليا أنسب بالمقام[4].

الوقفة الثالثة : عند النظر في بعض كتب أسباب النزول كأسباب النزول للواحدي[5] وكتب التفسير نجدهم يذكرون أن سبب نزول الآية هي

---

(١) مقدمة في التفسير (ص٤٤ حتى ص٤٨)
(٢) زاد المسير (٣/ ٢٢٠)
(٣) روح المعاني (٩ / ١١٤).
(٤) روح المعاني (٩ / ١١١)
(٥) انظر أسباب النزول للواحدي (ص ٢٢٦).

قصة بلعام بن باعوراء، وينقلون ذلك عن السلف وهذا على فرض صحته فمرادهم أنه المعني بذلك كما قدمت من كلام ابن تيمية لا أنه سبب النزول بالمعنى الاصطلاحي .

قال السيوطي : والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة به، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية [١].

قلت: وليخرج أيضا ما ذكره الواحدي أن سبب نزول هذه الآية قصة بلعام بن باعوراء.

الوقفة الرابعة : أن مبهمات القرآن تنقسم إلى قسمين :

قسم دل الدليل الصحيح على تعيينه؛ فالأولى أن نذكره ونعينه، وهذا من حمل المجمل على المبين .

وقسم لم يدل دليل على تعيينه؛ فالأولى أن نبقيه على إبهامه إذ لا فائدة من تعيينه كهذا الرجل الذي آتاه الله آياته إذ المقصود هو العظة من القصة لا تفاصيلها، وعلى هذا محققي أهل التفسير .

قال ابن جرير : " والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمرَ نبيه ﷺ أن يتلو على قومه خبرَ رجلٍ كان الله آتاه حُجَجه وأدلته، وهي "الآيات"... إلى أن قال: فالصواب أن يقال فيه ما قال الله، ونُقِرّ بظاهر التنزيل على ما جاء به الوحي من الله" [٢].

وقال السعدي : "وهذا الذي آتاه اللهّ آياته، يحتمل أن المراد به شخص معين، قد كان منه ما ذكره اللهّ، فقص اللهّ قصته تنبيها للعباد، ويحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه اللهّ آياته فانسلخ منها" [٣].

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٠١)

(٢) جامع البيان (٩/ ١٢٣)

(٣) تفسير السعدي(٣/ ١١٧)

وقال الشنقيطي :" ففي القرآن العظيم أشياء كثيرة لم يبينها الله لنا ولا رسوله ولم يثبت في بيانها شيء والبحث عنها لا طائل تحته ولا فائدة فيه . وكثير من المفسرين يطنبون في ذكر الأقوال فيها ، بدون علم ولا جدوى ، ونحن نعرض عن مثل ذلك دائما ؛ كلون كلب أصحاب الكهف ؛ واسمه وكالبعض الذي ضرب به القتيل من بقرة بني إسرائيل ، وكاسم الغلام الذي قتله الخضر ، وأنكر عليه موسى قتله ، وكخشب سفينة نوح من أي شجر هو ، وكم طول السفينة وعرضها ، وكم فيها من الطبقات ، إلى غير ذلك مما لا فائدة في البحث عنه ولا دليل على التحقيق فيه "[(١)].

يقول ابن عثيمين :" وذلك لأن الله عز وجل لو كان في بيان هذه القرية بعينها مصلحة لبينها ، وليس المقصود- كما مر علينا كثيرا- تعيين الأشخاص ، أو الأماكن ، أو الأزمان ، ليس فيه كثير فائدة في الغالب ، المقصود العبرة في القصة، وما وقع "[(٢)].

الوقفة الخامسة : أن المروي في هذه القصة هو من قبيل الخبر الإسرائيلي وقد تقدمت الإشارة إلى الموقف من أخبار بني إسرائيل والحكم عليها[(٣)].

المطلب الثاني: المراد بالآيات التي أوتيها

أخبر الله تعالى عن صاحب هذه القصة، أنه آتاه آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان، وقد اختلف أهل العلم في تعيين المراد بتلك الآيات المشار إليها على أقوال[(٤)]:

القول الأول : إنها اسم الله الأعظم، قال به ابن عباس والسدي وابن زيد .

القول الثاني : إنها كتاب من كتب الله، قاله ابن عباس .

القول الثالث : إنه أوتي النبوة ؛ وهو مروي عن مجاهد .

---

(١) أضواء البيان ٢/ ٢٢٦ .

(٢) تفسير القرآن الكريم سورة يس ص ٥٥ .

(٣) كما سبق تحريره في التمهيد من هذا البحث صـ (١٠) ، وانظر أيضا تفسير الخازن (٢ / ٢٧١)

(٤) انظر جامع البيان (٩ / ١٢٢) زاد المسير (٣ / ٢٢٢).

وهذا القول المنسوب إلى مجاهد لا يصح أثراً ولا نظراً؛ فأما إسناده فهو منقطع فقد رواه ابن جرير في تفسيره، وفيه راو لم يسم عن مجاهد[١] .

وأما من جهة النظر فقد تعقبه المفسرون : فقال ابن عطية : وهذا قول مردود ولا يصح عن مجاهد ومن أعطى النبوة فقد أعطى العصمة ولا بد ؛ ثبت هذا بالشرع [٢] .

وقال ابن كثير : وهذا لا يصح وقال : أغرب بل أبعد بل أخطأ من قال : كان قد أوتي النبوة فانسلخ منها حكاه ابن جرير عن بعضهم ولا يصح [٣] .

القول الرابع : إنها حجج التوحيد وفهم أدلته .

القول الخامس : إنها العلم بكتب الله عز وجل ذكر هذين القولين ابن الجوزي ولم ينسبهما[٤] .

وهذا الاختلاف في تعيينها سببه: أنها جاءت في القرآن مبهمة ولم يرد دليل صحيح عن معصوم في تعيينها فالأولى أن نبهم ما أبهمه الله ، ونلتفت إلى مواطن العبرة والفائدة ،ولذا قال ابن جرير الطبري رحمه الله بعد ذكره لبعض هذه الأقوال: " الصواب أن يقال فيه ما قال الله ، ونُقِرّ بظاهر التنزيل على ما جاء به الوحي من الله [٥] .

المطلب الثالث: معنى قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾

تعددت عبارات المفسرين في معنى قوله ﴿ لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ وخلاصتها ما يلي :

المعنى الأول : لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه، قال ابن عباس : رفعناه بعلمه، وهذا هو قول الجمهور فيكون الضمير عائداً على ما معه من الآيات .

(١) جامع البيان (٩ / ١٢٢).
(٢) المحرر الوجيز (٧ / ٢٠٤).
(٣) تفسير ابن كثير (٣ / ٢٥١) وانظر أيضا زاد المسير (٣ / ٢٢٠) روح المعاني (٩ / ١١٢)
(٤) زاد المسير (٣ / ٢٢٠)
(٥) جامع البيان (٩ / ١٢٣)

المعنى الثاني: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من الآيات، قال مجاهد وعطاء: " لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه"[1] ، فيكون الضمير عائداً على الكفر.

وبالنظر إلى القولين نجد أنه لا تعارض بينهما في النتيجة وهو حصول الرفعة بما معه من الآيات وعدم الكفر بها، ولذا قال ابن القيم رحمه الله بعد إيراده للمعنيين : "وهذا المعنى حق ، والأول هو مراد الآية ، وهذا من لوازم المراد ، وقد تقدم أن السلف كثيراً ما ينبهون على لازم معنى الآية ، فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها"[2].

المعنى الثالث : ولو شئنا لأخذناه أي أهلكناه من قولك : رفع الظالم إذا هلك فيكون الضمير في بها : عائد على المعصية في الانسلاخ وابتدأ وصف حاله بقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ ﴾ فهي عبارة عن إمهاله وإملاء الله له وهذا المعنى أشار إليه الزجاج [3] وذكره ابن عطية [4] وضعفه الألوسي .[5]

المعنى الرابع : لو شئنا لتوفيناه قبل أن يقع في المعصية ، ورفعناه عنها بالآيات ، فيكون الضمير عائد على الآيات ذكره ابن عطية [6] .

أو فرفعناه إلى الجنة بها ؛ أي بالعمل بها قاله الشوكاني [7] .

وبالنظر إلى هذه المعاني نجدها تشير إلى أن الله تعالى قد يسر له أسباب الرفعة وعلو الشأن لكنه أبى وأخلد إلى الأرض واتبع هواه فصار إلى ما صار إليه، ولذا قال ابن جرير: " وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال : إن الله عم الخبر بقوله ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ ﴾ أي أنه لو شاء رفعه بآياته التي آتاه

---

(١) انظر زاد المسير (٣/ ٢٢٢) ، بدائع التفسير (٢/ ٣١٠)
(٢) بدائع التفسير (٢/ ٣١٠)
(٣) انظر معاني القرآن (٢/ ٣٩١)
(٤) انظر المحرر الوجيز (٧/ ٢٠٦)
(٥) انظر روح المعاني (٩/ ١١٤)
(٦) المحرر الوجيز (٧/ ٢٠٦)
(٧) انظر فتح القدير (٢/ ٢٦٥)

إياها ،والرفع يعم معاني كثيرة ، منها الرفع في المنزلة عنده، ومنها الرفع في شرف الدنيا ومكارمها ،ومنها الرفع في الذكر الجميل والثناء الرفيع وجائز أن يكون الله عنى كل ذلك أنه لو شاء لرفعه ،فأعطاه كل ذلك بتوفيقه للعمل بآياته التي كان آتاه إياه"[(١)].

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ فمعناه مرتبط بما تقدم ومتمم لحالته وما آل إليه أمره، إذ هو استدراك على ما تقدم بيانه ولذا اختلفت عبارات المفسرين في معناه تبعاً لاختلافهم في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ ﴾

فقال ابن عطية : الكلام متصل – أي مع ما قبله – ذكر فيه السبب الذي من أجله لم يرفع ولم يشرف كما فعل بغيره ممن أوتي هدى ، وأخلد[(٢)] معناه لازم وتقاعس وثبت[(٣)].

وقال الراغب : المعنى ركن إليها ظاناً أنه مخلد فيها.[(٤)]

وقال ابن الجوزي : في معنى الكلام قولان:

أحدهما : أنه رَكَن إلى أهل الدنيا ، ويقال : إنه أرضى امرأته بذلك ، لأنها حملته عليه ، وقيل : أرضى بني عمِّه وقومَه .

والثاني : أنه ركن إلى شهوات الدنيا ، وقد بُيِّن ذلك بقوله : ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾

والمعنى : أنه انقاد لما دعاه إليه الهوى . قال ابن زيد : كان هواه مع قومه. وهذه الآية من أشد الآيات على أهل العلم إذا مالوا عن العلم إلى الهوى[(٥)] .

(١) جامع البيان (٩ / ١٢٧)

(٢) أصل الإخلاد هو الإبطاء والإقامة ولزوم المكان انظر : جامع البيان (٦ / ١٢٨) ، روح المعاني (٩ / ١١٤) ، لسان العرب (٣ / ١٦٤)

(٣) المحرر الوجيز (٧ / ٢٠٦)

(٤) مفردات ألفاظ القرآن ص٢٩٢ .

(٥) زاد المسير(٣/ ٢٢٢)

وهذه الأقوال لا تعارض بينها إذ كلها تدور حول معنى واحد وهو إيثار الفاني على الباقي ولذا قال ابن عطية رحمه الله بعد ذكره لهذه الأقوال : يحتمل أن يراد بها العبارة عن الأسفل والأخس كما يقال فلان في الحضيض ، ويتأيد ذلك من جهة المعنى المعقول وذلك أن الأرض وما ارتكز فيها هي الدنيا وكل ما عليها فان، من أخلد إليها فقد حرم حظ الآخرة الباقية [(١)].

المطلب الرابع: معنى قوله تعالى ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾

إن هذا المثل المضروب هو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله فمنهم هؤلاء القوم المضروب لهم المثل .

من المفسرين من قال : إنهم كفار مكة إذ كانوا يتمنون هادياً يهديهم ويدعوهم إلى طاعة الله ، فلما جاءهم نبي لا يشكون في صدقه كذبوه فلم يهتدوا [(٢)] .

ومن المفسرين من قال : إنهم اليهود إذ قد علموا رسالة النبي ﷺ وعرفوا صفته فحرفوا وبدلوا وأعرضوا. [(٣)] ، ومن قال هذا القول يظهر أنه أراد أنهم داخلون في حكم الآية لا أنهم هم المعنيون فيها ذلك أن السورة مكية ، واليهود إنما كانوا في المدينة .

ومنهم من جعله مثلاً عاماً لكل من كذب بآيات الله بعد علمه بها وجحدها [(٤)].

وهذا هو الأولى ولا يعارض القولين الآخرين إذ هما من باب التمثيل على حال المكذبين لا أنهم المعنيون به دون غيرهم ، فيكون هذا المثل عاماً لكل من كذب بآيات الله وفيه تعريض بكفار قريش ومن شابه حالهم كاليهود الذين علموا وجحدوا .

---

(١) المحرر الوجيز (٧/ ٢٠٧)

(٢) انظر تفسير البغوي (٣/ ٣٠٥) روح المعاني (٩ / ١١٦)

(٣) انظر فتح القدير (٢ / ٢٦٦)، جامع البيان (٩ / ١٣٠).

(٤) انظر تفسير الخازن (٢ / ٢٧٣)

ووجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث أنهم إذا جاءتهم الرسل ليهدوهم لم يهتدوا ، وإن تركوا لم يهتدوا أيضاً بل هم ضلال في كل حال .[١]

المطلب الخامس: المعنى الإجمالي للآية .

الاستعانة بالتشبيه أمر مركب في كلام العرب من قبل نزول القرآن ، بل إن أكثر كلامهم المنثور والمنظوم مبني على التشبيه والتفنن فيه ، ولما نزل القرآن بلغتهم جاء على طرائقهم وأساليبهم فجاء التشبيه في كتاب الله تعالى في غاية البلاغة وعلو الفصاحة وروعة البيان .

فبين أيدينا ذكر لحالة عبد فضله الله بنوره وهديه ومثله ثم عاد القهقرى تاركا علو الذات وعلو المكانة التي وهبه الله إياها لينحط إلى الأرض بسرعة جلمود حطه السيل من عل ..!

وحيث إنه عرف النور والحق ثم نكص على عقبيه وتردى ليعيش عيشة الدونية الدنيوية في خبث للنفس وكفر للمنعم ونقض للعهد ؛ جاء التشبيه القرآني ليعطيه منزلته الحقيقة فلم يجعله مثل أولئك الذين لم يلتفتوا للوحي من البداية حين جعلهم كالأنعام بل هم أضل بل اختار له منزلة خاصة من خلال نوعية الحيوان الذي هو الكلب الموغل في الخسة ثم اختار صفة صارخة مقززة للكلب وهي كونه ملازم اللهثان وجعل اللهثان بمكان نفسه الخبيثة التي لم تفرق بين الآيات فتعليها وتترفع بها وبين السفول الذي اختارت ..!

وتجدر الإشارة هنا إلى خبث الكلب في نصوص السنة سواء حين يلغ في الإناء أو اتخاذه دون حاجة ونحوه ، مما يعزز كون هذا الحيوان يتصف بأوصاف جامعة للسوء والخسة ، فانظر كيف اختار الله هذه الصورة المريعة والتي تتراءى لكل من أوتي حظا من العلم فترك العمل به واتبع هواه وآثر سخط الله على رضاه ودنياه على آخرته صورة الكلب الذي هو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدراً وأخبثها نفساً وهمته لا تتعدى بطنه ، هذا الحيوان الذي لا يكف عن اللهاث في كل أحواله في منشطه ومكرهه وعسره ويسره ،

(١) انظر تفسير الخازن (٢ / ٢٧٣)

تماماً كحال من آثر الدنيا وعاجلها على الدار الآخرة في لهفه على الدنيا وانغماسه فيها تاركاً النعيم الباقي مؤثراً عليه النعيم الفاني، فينسلخ من آيات الله الغطاء الواقي ، والدرع الحامي ، وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق ، ولا يحميه منه حام فيستحوذ عليه ، وهذا مصير كل من كذب بآيات الله بعد أن أعطيها وهدي إليها ، وهل أسوأ من هذا المثل ، وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى ، وهل أسوأ من اللصوق بالأرض وإتباع الهوى ، وهل يظلم الإنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا.

ثم ليعلم أن هذه القصة وإن ذهب أعيانها وأصبحوا أثراً بعد عين فإن مشاهدها لم تنته فهي شاهد عيان لمصير كل من اتبع الهوى بعد الهدى وآثر الدنيا على الأخرى ، فحظه اللهاث وعدم الاطمئنان والراحة في الدنيا، والشقاء في الآخرة نسأل الله العافية .(١)

المبحث الثالث : الدروس المستفادة من الآية

الناظر فيما قصه الله تعالى في هذه الواقعة يجد أنها تدور حول محورين أساسين هما : عقوبة ترك العمل بالعلم ، وعاقبة اتباع الهوى، فعلى المرء أن يعمل بمقتضى ما علم ، وأن لا تغريه الدنيا وزخرفها ، فإن من اتبع هواه فآثر الدنيا على الأخرى فمآله وحاله كحال ما قصه الله في هذه الآيات ولذا دار هذا المبحث حول هاتين القضيتين وما يمكن استنباطه من فوائد فجاء في ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : فضل العمل بالعلم ، والتحذير من ضده .

لقد حث الإسلام على العلم النافع ورغب في تحصيله وطلبه ، وأثنى على العلماء ووعدهم الأجر والمثوبة قال تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨] .

---

(١) انظر : الأمثال في القرآن لابن القيم (ص٢٧) وما بعدها ، وانظر : في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١٣٩٦) وما بعدها .

فانظر كيف فُضِّل العلم وشُرف أهله على من سواهم ، إذ لو كان أحدٌ يعدلهم لقرن الله شهادته بشهادته كما قرن الله شهادة أهل العلم بشهادته سبحانه وتعالى ، وفيه حثٌ للمسلمين على تعلم العلم النافع الموصل إلى الله والهادي إليه .

بل إنه لا يمكن أن يُسّوى العالم بغيره قال تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] ومن علمه الله وجب عليه العمل بما علم إذ العمل بالعلم من أسباب بقائه ونمائه وبركته ، فقد قيل : هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل .

وللعمل بالعلم فوائد عظيمة في الدنيا والآخرة ؛ منها :

الفائدة الأولى: حصول الرفعة في الدنيا والآخرة وقد أشارت الآيات إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٦] .

الفائدة الثانية: أن الرفعة إنما تحصل بالعمل بما علم لا مجرد العلم وهو ما قررته هذه الآيات إذ هذا الرجل كان عالماً بل هو من هو من أعلم أهل زمانه ، ومع هذا لم يرتفع بذلك ، نظراً لعدم عمله بعلمه [1] .

الفائدة الثالثة: الذي يعمل بعلمه يسلم من العواقب السيئة، والنتائج الوخيمة والأوصاف القبيحة الملازمة لمن لا يعمل بعلمه ، كحال المذكور في هذه الآيات فإن تأمل حاله وما لحقه من الأوصاف كان بسبب تركه العمل بما علم.

الفائدة الرابعة: أن العلم المجرد للعلم والمعرفة لا لقصد العمل والتربية لا يعصم من ثقلة الأرض ودفعة الهوى وإغواء الشيطان ، ولا يقدم لصاحبه خيراً بل هو وبال عليه ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٦] .

---

(١) ينظر : بدائع التفسير (٢/ ٣١٠) ، العمل بالعلم بين الواقع والواجب لـ عبد الله الفوزان .

الفائدة الخامسة: قال السعدي: الترغيب في العمل بالعلم وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه وعصمة من الشيطان .

المطلب الثاني: ذم إتباع الهوى

قال ابن القيم رحمه الله : "الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه ، وهذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه ... فلا ينبغي ذم الهوى مطلقاً ، ولا مدحه مطلقاً كالغضب ، وإنما يذم المفرط من النوعين ... ولم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه ، وكذلك في السنة لم يجيء إلا مذموماً إلا ما جاء منه مقيداً "(1) .

وكون النفس تهوى وتتمنى أمر جبلي وطبعي لكن الشأن كل الشأن في اتباع الهوى أو مخالفته، وهنا يأتي دور الإيمان والتقوى والتمايز بين المطيعين والعاصين ففي الآيات المفسرة نلاحظ أثر اتباع الهوى في الحال التي وصل إليها قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ﴾ [الأعراف: ١٧٦] .

إن من أعطى نفسه هواها ، كان أسيراً لها، وخسر الخسران المبين ، وفات عليه الفوز العظيم كما أن من نهى نفسه عن هواها فاز وظفر قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات: ٤١]

وقد شبه الله تعالى المتبعين لأهوائهم بأخس الحيوانات صورة ومعنى، فشبههم بالكلب وبالحمر تارة ، وقلب صورهم إلى صورة القردة والخنازير تارة (2) .

والنصوص الشرعية من الآيات والأحاديث في ذم الهوى واتباعه كثيرة، وما زال العلماء يلهجون بها في كتبهم وخطبهم وأحاديثهم ، وقد ألف في ذلك مؤلفات من أشهرها : ذم الهوى لابن الجوزي رحمه الله ، وعقد ابن القيم فصلاً

(١) روضة المحبين ص ٤٦٩

(٢) انظر : روضة المحبين لابن القيم ص ٤٧٢ .

في الأمور المعينة على التخلص من الهوى فذكر خمسين أمراً يعين العبد للتخلص من اتباع هواه [(١)] .

المطلب الثالث : الفوائد المستنبطة من القصة

إن ما قصه الله تعالى في هذه الآية العظيمة حري بنا أن نبذل وسعنا في استخراج فوائدها واستنباط أسرارها ، إذ قد احتوت على دلائل عظيمة وفوائد نافعة أشار إليها المفسرون كل بحسب وسعه وفهمه ،فهاكها مجموعة منتقاة عل الله ينفع بها جامعها وقارئها فمن فوائدها:

الفائدة الأولى: قال القرطبي: هذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل عام في كل من أوتي القرآن فلم يعمل به [(٢)] .

الفائدة الثانية: قال عطاء: هذه أشد آية على العلماء وذلك أن الله عز وجل أخبر أنه آتاه آية من اسمه الأعظم والدعوات المستجابات والعلم والحكمة فاستوجب بالسكون إلى الدنيا وتباع الهوى تغيير النعمة عليه والانسلاخ عنها ومن الذي يسلم من هاتين الخلتين إلا من عصم الله [(٣)] .

الفائدة الثالثة: استأنس بعضهم بهذه الآية لأن العلم لا ينزع من الرجل حيث قال سبحانه ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٥] ولم يقل فانسلخت منه . [(٤)]

الفائدة الرابعة: الترهيب من عدم العمل بالعلم وأنه نزول إلى أسفل سافلين وتسليط للشيطان عليه .

الفائدة الخامسة: بيان الله لعباده وأنه هو المنفرد بالهداية والإضلال [(٥)] .

وقد أطال ابن القيم رحمه الله في هذه الآية وفوائدها وذكر لطائفها فقال: فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه وذلك من وجوه :

---

(١) روضة المحبين من ص ٤٦٨ حتى ص ٤٨٦

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٢٣)

(٣) تفسير البغوي (٣/ ٣٠٤)

(٤) المرجع السابق (٩ / ١١١)

(٥) تفسير السعدي (٣ / ١١٨)

أحدها : أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمداً لا جهلاً .

وثانيها : أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبداً فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها ، ولو بقي معه شيء لم ينسلخ منها .

وثالثها : أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه ، ولهذا قال تعالى ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ ولم يقل تبعه، فإنه في معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى .

ورابعها: أنه غوى بعد الرشد ، والغي: الضلال في العلم والقصد ، وهو أخص بفساد القصد والعمل ، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد ، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، وإن اقترنا فالفرق ما ذُكر .

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه لأنه لم يرفع به فصار وبالاً عليه ، فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه .

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسة همته وأنه أختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك ، وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام ... وعبّر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض لأن الدنيا هي الأرض وما فيها يستخرج منها من الزينة والمتاع .

وثامنها: أنه رغب عن هداه واتبع هواه ، فجعل هواه إماماً له يقتدى به ويتبعه .

وتاسعها: أنه شُبِّه بالكلب الذي هو من أخس الحيوانات همة ، وأسقطها نفساً وأبخلها ، وأشدها كَلَبَاً ، ولهذا سُمي كلباً .

وعاشرها : أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه في تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد وهكذا ... وهذا إن تُرك فهو لهثان على الدنيا وإن وُعظ وزجر فهو كذلك فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب ... فضربه الله مثلاً لهذا الكافر فقال : إن وعظته فو ضال وإن تركته فهو ضال ، كالكلب إن طردته لهث وإن تركته في

حاله لهث وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب وإنما وقع بالكلب اللاهث ، وذلك أخس ما يكون وأفظعه .[١]

هذا ما تيسر جمعه حول هذه الآية العظيمة فإن كان صواباً فمن الله ،وإن كان خطأ فمن نفسي والشيطان واستغفر الله وأتوب إليه .

(١) بدائع التفسير (٢/ ٣١٢)

الخاتمة

أحمد الله على إتمام هذا البحث ، وبعد جولة في أسرار هذه الآية وهداياتها خرجت بجملة من النتائج أجملها فيما يلي :

أن المذكور في هذه الآيات هو مثال لمن نقض العهد الذي أخذه الله على بني آدم المذكور في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] .

أن هذه الآية قصة قرآنية اشتملت على مثل قرآني .

أعدل الأقوال في هذه الآية أن المراد بها رجل من بني إسرائيل لم يقم الدليل على تعيينه، ومن قال بخلاف ذلك فمراده أنه داخل في حكم الآية .

تشير الآيات أن الله تعالى يسر له أسباب الرفعة وعلو الشأن لكنه أبى وأخلد إلى الأرض واتبع هواه فصار إلى ما صار إليه .

عدّ بعض السلف هذه الآية أشد آية على العلماء .

اشتملت الآية على فضيلة العمل بالعلم وأن العلم وحده ليس كافيا للنجاة.

أن من أعظم أسباب الضلال اتباع الهوى .

الدعوة للوقوف مع القصص القرآنية، واستخراج ما فيها من العبر والعظات وتنقيتها مما شابها من الإسرائيليات .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

فهرس المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي عبد الرحمن ، تعليق د٠ مصطفى البغا ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ، دار ابن كثير _ دمشق .

٢. أسباب النزول ، لعلي بن أحمد الواحدي ، تخريج وتدقيق عصام الحميدان ، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ ، دار الإصلاح _ الدمام .

٣. الأمثال في القرآن لابن القيم ، مكتبة الصحابة ، مصر .

٤. بدائع التفسير ، لابن قيم الجوزية ، جمعه ووثق نصوصه وخرج أحاديثه يسرى السيد محمد ،الطبعة الأولى ربيع الثاني ١٤١٤هـ ، دار ابن الجوزي _ الدمام.

٥. تأويل مشكل القرآن ، لعبد الله ابن قتيبة، شرحه السيد أحمد صقر ، المكتبة العلمية.

٦. التحرير والتنوير ، لمحمد الطاهر بن عاشور ، الشركة التونسية للنشر .

٧. تفسير ابن كثير(تفسير القرآن العظيم) ، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، دار الأندلس _ بيروت .

٨. تفسير أبي السعود (المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) ، لأبي السعود محمد بن محمد العمادى ، دار إحياء التراث العربي _ بيروت .

٩. تفسير البغوي (معالم التنزيل) ، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ، تحقيق محمد النمر ، عثمان ضميرية ، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ، دار طيبة _ الرياض .

١٠. تفسير الخازن (المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل) ، لعلاء الدين علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن ، ضبطه وصححه عبد السلام محمد شاهين ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ، دار الكتب العلمية _ بيروت .

١١. تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ، للشيخ عبد الرحمن السعدي ، تحقيق عبد الرحمن اللويحق، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ، مؤسسة الرسالة _ بيروت .

١٢. تفسير سورة يس ، محمد بن صالح بن عثيمين ، طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد العثيمين الخيرية ، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ ، دار الثريا – الرياض .

١٣. جامع البيان عن تأويل آي القرآن لمحمد بن جرير الطبري ، دار الفكر _ بيروت.

١٤. الجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي ، الطبعة ١٤١٣هـ ، دار الكتب العلمية _ بيروت .

١٥. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود الألوسي ، تحقيق محمد أحمد الأمد _ عمر عبد السلام السلامي ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ، دار إحياء التراث العربي .

١٦. روضة المحبين لابن القيم ، دار الكتب العلمية.

١٧. زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن الجوزي ، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه أحمد شمس الدين ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ، دار الكتب العلمية _ بيروت .

١٨. صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، أشرف عليه د. بدر الدين جتين ، الطبعة الثانية ، دار سحنون – تونس .

١٩. علوم القرآن ، د. عدنان زرزور ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت.

٢٠. العمل بالعلم بين الواقع والواجب لـ عبد الله الفوزان ، دار المسلم .

٢١. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد الشوكاني ، عالم الكتب .

٢٢. في ظلال القرآن لسيد قطب ، ط دار الشروق.

٢٣. لسان العرب ، لابن منظور محمد بن مكرم الأفريقي، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ، دار الفكر _ بيروت .

٢٤. مباحث في علوم القرآن ، مناع القطان ، الطبعة الثالثة ١٤٢١، مكتبة المعارف – الرياض.

٢٥. محاضرات في علوم القرآن ، د. فضل حسن عباس ، الطبعة ١٤٢٧ هـ ، دار النفائس – عمان.

٢٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ، تحقيق المجلس العلمي بتارودانت ،الطبعة ١٤١١هـ .

٢٧. معاني القرآن ، ليحيى بن زياد الفراء ، تحقيق عبد الفتاح شلبي ، دار السرور_ بيروت .

٢٨. مفردات ألفاظ القرآن ، للراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان داوودي ، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ ، دار القلم _ دمشق .

٢٩. مقدمة التفسير ، لابن تيمية أحمد بن عبد الحليم ، تحقيق عدنان زرزور، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ ، دار القرآن الكريم _ بيروت .

٣٠. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ، دار الكتاب الإسلامي ، ط القاهرة الثانية مصورة من دائرة المعارف العثمانية .